سِلسِلةُ العُلمَاءِ (٥)

نَصِيرُ الفُقَرَاءِ

أَبُو ذَرٍّ الغِفَارِيُّ

إعداد

شيرين عبد الكريم

تحت إشراف

عاطف عبد الرشيد

أَبُو ذَرٍّ الغِفَارِيُّ ﷺ، العَابدُ الزَّاهدُ، خَامِسُ مَن أسلمَ مِنَ الصَّحابَةِ، وَأوَّلُ مَنْ حَيَّا الرَّسولَ ﷺ بِتحيَّةِ الإسلامِ.

أَقبلَ أَبُو ذَرٍّ إلى مَكَّةَ يبحثُ عن النَّبِيِّ ﷺ، فَلمَّا قابلَهُ سمعَ مِنْهُ القُرآنَ، فأسلمَ، ثُمَّ نطقَ الشَّهادةَ في أرجاءِ مكَّةَ، فتعرَّضَ لإيذاءِ قُريشٍ، ثُمَّ ذَهبَ فدعَا قَومَهُ، وهَاجَرَ بنصفِ القَبيلةِ إلى المدينةِ المنوَّرةِ، وكَانَ زَاهدًا، عابدًا، مُتواضعًا، عَالمًا، قالَ عَنهُ النَّبيُّ ﷺ: "مَا أَظلَّتِ الخضراءُ (السَّماءُ) وَلا أَقلَّتِ الغَبراءُ (الأرضُ) منْ ذِي لَهجةٍ أصدقَ ولا أَوفَى مِنْ أَبِي ذَرٍّ" [الترمذي].

وقالَ عنهُ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ ﷺ: وَعَى أَبُو ذَرٍّ عِلمًا عَجزَ النَّاسُ عَنهُ، ثُمَّ أَوكَأَ عليهِ (احتَفظَ بِهِ) فلَمْ يُخرِجْ شيئًا مِنهُ.

وكانَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ يُحاربُ جمعَ المالِ، ويُدافعُ عنِ الفُقراءِ، وَيطلبُ مِنَ الأغنياءِ أن يُعطوهُمْ حقَّهُمْ مِنَ الزَّكاةِ، لِذلكَ سُمِّيَ بِمُحامِي الفُقراءِ، وقيلَ: هُوَ أَوَّلُ اشتراكيٍّ طاردَتْهُ الحُكومَاتُ.

وَفي هذَا الكتابِ نَتعرَّفُ على سيرةِ الصَّحابيِّ الجَليلِ، نَصيرِ الفُقراءِ، أبي ذَرٍّ الغِفَارِيِّ ﷺ.

إِسلامُ أَبِي ذَرٍّ

اسمُهُ جُنْدُبُ بنُ جُنَادَةَ بنِ كُعيبِ بنِ صعيرٍ، من بَنِي غِفَارِ بنِ مُليلٍ، مِنْ خُزيمةَ..كانتْ قَبيلتُهُ مشهورةً بالسَّطوِ واللصُوصيَّةِ وقطعِ الطَّريقِ وسرقَةِ المسافِرينَ..وكانَ أبُو ذَرٍّ رجُلاً أسمرَ اللَّونِ، ضخمًا، جَسيمًا، كثَّ اللِّحيةِ، يُكثِرِ مِنَ التَّفكُّرِ في الكونِ، وفي عَظمةِ خَالقِهِ، ويكرَهُ الأصنامَ، يَرى أنَّها لا تنفعُ ولا تضرُّ، واهتدَى بفطرتِهِ إلى الوحدَانيَّةِ قبلَ ظهُورِ الإسلامِ، يقُولُ عبدُ اللهِ بنُ الصَّامتِ: قال لي أبُو ذَرٍّ ﷺ: يَا ابنَ أخي صلَّيتُ قبلَ الإسلامِ، وقبلَ أنْ ألقَى رسُولَ اللهِ ﷺ ثَلاثَ سنينَ. فقُلتُ: مَن كُنتَ تعبدُ؟ قالَ: إلهُ السَّماءِ. قُلتُ: فأينَ كانتْ قِبلَتُكَ؟ قال: حيثُ وجَّهنِي اللهُ ﷻ.[أبو نعيم].

وظلَّ أبُو ذَرٍّ في قَومِهِ حتَّى سَمِعَ أنَّ بمكَّةَ رَجُلاً يَدعُو النَّاسَ إلى عبادَةِ اللهِ الوَاحدِ الأحدِ، فعزمَ علَى أنْ يذهَبَ

إليهِ ويَلقاهُ، يَقولُ عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ: أَلا أُخبرُكمْ ببدءِ إسلامِ أبي ذَرٍّ، لَمَّا بَلغَهُ أنَّ رَجُلاً خَرجَ بمكَّةَ يَزعمُ أنَّهُ نَبِيٌّ أرسَلَ أخَاهُ (أُنيسَ)، فقالَ لَهُ: اذَهبْ فأتِني بخبرِ هذَا الرَّجُلِ وبِمَا تَسمعُ مِنهُ. فانطلقَ الرَّجلُ حتَّى أَتَى مَكَّةَ، فَسمعَ مِنْ رسُولِ اللهِ ﷺ، فَرجعَ إلى أبِي ذَرٍّ، فَأخبرَهُ أنَّهُ يأمرُ بالمعروفِ وينهَى عن المنكرِ ويَأمرُ بمكارمِ الأخلاقِ. فقالَ أَبُو ذَرٍّ: مَا شفيتَنِي (أي: لَمْ تُخبرنِي بِمَا أُريدُ)، فَخرجَ أَبُو ذَرٍّ ومَعَهُ شَنَّةً (وعاءً) فيهَا مَاءٌ وزَادٌ حتَّى أَتَى مكَّةَ، فَخَافَ أنْ يسألَ أحدًا عنْ شيءٍ، ولَمْ يلقَ رسُولَ اللهِ ﷺ، فَأدركَهُ اللَّيلُ، فباتَ في نَاحيةِ المسجدِ، فلمَّا جاءَ الظَّلامُ مَرَّ بهِ عليٌّ فقالَ: ممَّنِ الرَّجُلُ؟ قالَ: رجُلٌ من بَنِي غِفَارٍ، قال: قُمْ إلى منْزِلكَ (أي: منْزِلِي)، فَانطلقَ بِهِ إلى منْزِلِهِ، ولَمْ يسألْ واحدٌ منهُمَا صَاحِبَهُ عن شيءٍ.

وفي الصَّباحِ انطلقَ أَبُو ذَرٍّ يَطلبُ النَّبيَّ ﷺ فلمْ يلقَهُ، وكَرِهَ أنْ يسألَ أحدًا عَنهُ، فَعادَ فنامَ حتَّى أمسَى فمرَّ بهِ عليٌّ، فقالَ: أمَا آنَ لِلرَّجُلِ أنْ يعرفَ منْزِلَهُ؟ فَانطلَقَ بِهِ، فباتَ حتَّى أصبحَ لا يَسألُ واحدٌ منهُمَا صَاحبَهُ عنْ شيءٍ،

فَأصبحَ أبُو ذَرٍّ اليومَ الثَّالثَ، فَأخذَ عهدًا علَى عَلِيٍّ لَئنْ أفشَى إليهِ الَّذِي يُريدُ لَيكتُمَنَّ عَليهَ ولَيستُرَنَّهُ، ففعَلَ، فَأخبرَهُ أَنَّهُ بَلغَهُ خُروجُ هذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزعمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وأَنَّهُ أرسلَ أخاهُ لِيأتيَه بخبرِهِ وبِمَا سَمعَ مِنْهُ فلمْ يأتيهِ بِمَا يُريدُ، فَجاءَ، بنفسِهِ لِيلقَاهُ، فقَالَ لَهُ علِيٌّ: إِنِّي غَادٍ (ذَاهبٌ) فَاتَّبعْ أَثَري (امشِي خَلفِي)، فإِنِّي إنْ رَأيتُ مَا أخافُ عَليكَ اعتلَلتُ بالقِيَامِ كأَنِّي أريقُ الماءَ، وَإِنْ لَمْ أرَ أحدًا فَاتَّبعْ أثرِي حتَّى تدخلَ حيثُ أَدخلُ. ففعلَ حتَّى دخلَ خَلفَ علِيٍّ، فَوَجدَ النَّبيَّ ﷺ يُصَلِّي، فانتظَرَ حتَّى قَضَى ﷺ صَلاتَهُ، ثُمَّ قالَ: السَّلامُ عليكَ. فقالَ النَّبيُّ ﷺ: "وعليكَ السَّلامُ" فكانَ أبُو ذَرٍّ ﷺ أوَّلَ مَنْ حيَّا رسُولَ اللهِ ﷺ بتحيَّةِ الإسلامِ، ثُمَّ جلسَ فَدعاهُ النَّبيُّ ﷺ إلى الإسلامِ، وقَرأَ عَليهِ القُرآنَ، فَأسلمَ أبُو ذَرٍّ ﷺ ونطَقَ شهادةَ الحقِّ، وكانَ إسلامُهُ مُبكِّرًا، حيثُ كانَ خامسَ مَنْ أَسلمَ مِنَ الصَّحابةِ.

❊ ❊ ❊

شَجاعةٌ .. وَإِيذاءٌ

كانَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ يَتَّسِمُ بالشَّجاعةِ والجرأةِ، خاصَّةً وأَنَّهُ مِنْ قبيلةِ غِفَارٍ التي كانَتْ مشهورةً بأَنَّهُمْ أبناءُ اللَّيلِ في السَّرقةِ والنَّهبِ، لِذلكَ لَمَّا أسلمَ أَبُو ذَرٍّ سألَهُ النَّبِيُّ ﷺ عن قبيلتِهِ، فَلمَّا عَلِمَ أَنَّهُ من غِفَارٍ تبسَّم ﷺ، وتبسَّمَ كذَلِكَ أَبُو ذَرٍّ، وجعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يرفعُ بَصرَهُ، ويصوِّبُهُ عجبًا لِمَا كانَ يعلمُ مِن أخبارِ غِفَارٍ وأعمالِهِمْ، ولَكنَّ الهِدَايةَ مِنَ اللهِ، فاللهُ ﷻ يَهدِي مَن يَشاءُ..

وَعندَمَا أسلمَ أَبُو ذَرٍّ كانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدعُو النَّاسَ سِرًّا، ولكنَّ شَجاعةَ أبي ذَرٍّ وجرأتَهُ لَمْ تَترُكْهُ يَكتمُ إسلامَهُ، فَأرادَ أنْ يُعلِنَهُ، يَقُولُ أَبُو ذَرٍّ: أقمتُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ بِمكَّةَ، فَعلَّمنِي الإسلامَ، وقَرأتُ مِنَ القُرآنِ شيئًا، فقُلتُ: يَا رسُولَ اللهِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُظهِرَ دِينِي. فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنِّي أَخافُ عليكَ أنْ تُقتلَ". قُلتُ: لابدَّ منهُ وإنْ قُتِلْتُ. فسكتَ النَّبيُّ ﷺ عَنِّي، فَجِئتُ وقُريشٌ حِلقًا يتحدَّثُونَ في المسجدِ الحرامِ، فَقلتُ: أشهَدُ أَنْ لا إِله إلاَّ اللهُ وأَنَّ محمَّدًا رسُولُ اللهِ.

قَالَ أَبُو ذَرٍّ ذلكَ بأَعلَى صوتِهِ أمامَ المشرِكينَ، فَأسمعَهُمْ بذَلكَ مَا يَكرهونَ، فَقامُوا إليهِ وهُمْ يقُولونَ: صبأَ الرَّجُلُ، صبأَ الرَّجُلُ. ثُمَّ رَاحُوا يَضربُونَهُ حتَّى سقطَ علَى الأرضِ، فرآهُمُ العبَّاسُ بنُ عبدِ المطَّلبِ، فعرفَهُ، فَأسرعَ يَدفعُ النَّاسَ عنْهُ ويقولُ لَهُمْ: يَا معشَرَ قُريشٍ، هذَا رَجُلٌ من غِفَارٍ، وأنتُمْ تُجَّارٌ، وطريقُكُمْ علَى غِفَارٍ، أتُريدُونَ أنْ يقطعَ الطَّريقَ عليكُمْ.. فتركَهُ النَّاسُ وتفرَّقُوا عَنهُ بَعدمَا سالَ الدَّمُ مِن وجهِهِ وجسدِه.

فَلمَّا كانَ اليومُ التَّالي فعلَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ كمَا فعلَ في اليومِ السَّابقِ، فقَامُوا إليهِ، وَضَرَبُوهُ ضربًا شديدًا حتَّى جاءَ العبَّاسُ فمنعَهُمْ عَنهُ، فَتركُوهُ وقدْ سالَ مِنهُ الدَّمُ، وظَنُّوا أَنَّهُمْ قَتلُوهُ، فَذهبَ أَبُو ذَرٍّ إلى النبيِّ ﷺ، فلمَّا رأى ﷺ مَا بِهِ أشفقَ عَليهِ، وَقالَ لَهُ: "أَلَمْ أنهَكَ؟" فقالَ أَبُو ذَرٍ: يَا رسُولَ اللهِ، كانتْ حَاجةً في نَفسِي فَقَضيتُهَا. فقالَ لَهُ النبيُّ ﷺ: "الْحَقْ بِقومِكَ (اذهَبْ إلى أهلِكَ)، فإذَا بَلغَكَ ظهُورِي (انتشارُ الإسلامِ) فَأتِنِي"[أبو نعيم].

فقالَ أَبُو ذَرٍّ: يَا رسُولَ اللهِ، أمَّا قُريشٌ فَلَن أَدعَهُمْ حتَّى أثأرَ مِنهُمْ؛ ضَربُونِي وَأهَانُوني. ثُمَّ خرجَ أَبُو ذَرٍّ الغِفَارِيُّ

ﷺ إلى مكانٍ يُسمَّى "عُسفَانَ" في طَريقِ تجارةِ قُريشٍ، ومَعَهُ جماعةٌ مِنْ قَومِه، فَكانَ يَعترضُ عيرَ قُريشٍ، فَيأخذُ مِنهُمُ التِّجارةَ، ثُمَّ يقولُ لهُمْ: لا أردُّ إليكُمْ منهَا شيئًا حتَّى تَشهدُوا أَنْ لا إلَهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسُولُ اللهِ، فإنْ فَعلُوا رَدَّ عَليهِمْ مَا أَخذَ مِنهُمْ، وإنْ رَفضُوا لَمْ يردَّه عَليهمْ، وأخذَهُ، ثُمَّ يقولُ لِمَنْ مَعهُ: لا يَمسُّ أحدٌ حَبَّةً حتَّى تَقُولُوا: لا إلهَ إلاَّ اللهُ مُحمَّدٌ رسُولُ اللهِ. فيقُولُونَ ذَلِكَ، فَيعطِيهمْ مِنَ الطَّعامِ.

وراحَ أَبُو ذَرٍّ يَدعُو قَومَهُ بَنِي غِفَارٍ وبَنِي أَسلمَ إلى الإسلامِ، فأسلمَ معَهُ نصفُ القبيلَةِ.

هِجرَةٌ.. وَجِهادٌ

ظَلَّ أَبُو ذَرٍّ الغِفَارِيُّ ﷺ معَ قَومِه حتَّى هَاجَرَ النَّبيُّ ﷺ إلى المدينةِ المنوَّرةِ، ومَضَتْ غَزوةُ بَدرٍ ثُمَّ غَزوةُ أُحُدٍ ثُمَّ غَزوةُ الخندقِ..فَهاجَرَ أَبُو ذَرٍّ بِمَنْ آمنَ مَعَهُ من قَبيلتِه غِفَارٍ وجَارتِهَا قبيلةِ أسلمَ، ففَرِحَ النَّبيُّ ﷺ بهمْ، وقَالَ: "غِفارٌ غفرَ اللهُ لهَا، وأسلمُ سَالَمَهَا اللهُ" [مسلم].

وظَلَّ أبُو ذَرٍّ الغِفَارِيُّ ﷺ مُلازِمًا لِلنَّبيِّ ﷺ، يَشهدُ معَهُ الغَزواتِ وَالمعاركَ، ولا يُفارقُهُ إلا قليلاً، فَشهدَ فتحَ مكَّةَ، وغزوةَ حُنينٍ، ولَمَّا سَارَ النَّبيُّ ﷺ إلى غَزوةِ تبوكَ، تَخلَّفَ أُناسٌ كثيرٌ عَنهُ، فجعلَ لا يزالُ يتخلَّفُ الرَّجلُ، فيقولُونَ: يَا رسُولَ الله، تَخلَّفَ فُلانٌ. فيقولُ ﷺ: "دَعُوهُ، إن يَكُنْ فيهِ خيرٌ فَسيلحقُكُمْ، وإنْ يَكُنْ غيرُ ذَلكَ فقدْ أراحَكُمْ اللهُ مِنهُ". حتَّى قِيلَ: يَارسُولَ اللهِ، تَخلَّفَ أبُو ذَرٍّ، أبطأَ بهِ بَعيرُهُ.

وكانَ بعيرُ أبي ذرٍّ قدْ مَكَثَ وتلبَّثَ بِالأَرضِ، فَلمَّا رأى أبُو ذَرٍّ ذَلكَ رفعَ متاعَهُ من فوقِ البَعيرِ، وحملَهُ علَى كتفِهِ وظَهرِهِ، وسَارَ مُسرعًا يتبَعُ رسُولَ اللهِ ﷺ، فَنظر نَاظِرٌ مِنَ المسلمينَ فرآهُ مِن بعيدٍ، فَقالَ: إنَّ هذَا الرَّجُلَ يَمشِي علَى الطَّريقِ! فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: "كُنْ أبَا ذَرٍّ" فَلمَّا اقتربَ وجدَهُ النَّاسُ أبَا ذَرٍّ، فقَالُوا: هُوَ واللهِ أبُو ذَرٍّ. فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: "رَحِمَ اللهُ أبَا ذَرٍّ، يَمشِي وحدَهُ، ويَموتُ وحدَهُ، ويُبعثُ وحدَهُ" [ابن إسحاق].

وظَلَّ أبُو ذَرٍّ ﷺ معَ النبيِّ ﷺ حتَّى لَحِقَ ﷺ بالرَّفيقِ الأعلَى، وتولَّى أبُو بَكرٍ الصِّدِّيقُ خِلافةَ المسلِمينَ، فَوقفَ

أَبُو ذَرٍّ ﷺ بجانبِ الصِّدِّيقِ، وشَارَكَ في حرُوبِ الرِّدَّةِ، كمَا شَارَكَ في الفُتوحَاتِ الإسلاميَّةِ علَى عهدِ الفَاروقِ عُمرَ ابنِ الخطَّابِ ﷺ، وشَهِدَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ فتحَ بيتِ المقدسِ، وغيرَ ذلِكَ من فتُوحاتِ المسلِمينَ في الشَّامِ والعِرَاقِ.

تَواضعُ أَبِي ذَرٍّ

كانَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ من أشدِّ النَّاسِ تَواضعًا، فَكانَ يَلبسُ ثوبًا كثوبِ خادمِهِ، ويأكلُ مِمَّا يُطعمُهُ، فقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا ذَرٍّ، لوْ أخذتَ ثَوبكَ والثَّوبَ الَّذِي علَى خادمِكَ وجعلتَهُمْا ثوبًا واحدًا لكَ، وكسوتَ خادمَكَ ثَوبًا آخرَ أقلَّ منهُ جَودةً وقيمةً مَا لامَك أحدٌ علَى ذَلكَ، فأنتَ سيِّدُهُ، وهُوَ عبدٌ عِندَكَ، فقالَ أَبُو ذَرٍّ: إنَّي كنتُ سَابتُ (شتمتُ) بِلالاً، وعيَّرتُهُ بِأُمِّهِ، فقلتُ لَهُ: يَا بنَ السَّوداءِ. فشكَانِي إلى رسُولِ اللهِ ﷺ، فقالَ لِيَ النَّبيُّ ﷺ: "يَا أَبَا ذَرٍّ أعيَّرتَهُ بأُمِّهِ؟ إنَّكَ امرؤٌ فِيكَ جَاهليَّةٌ". فَوضعتُ رَأسِي علَى الأرضِ، وقُلتُ لِبلالٍ: ضَعْ قدمَكَ علَى رقبَتِي حتَّى يَغفِرَ اللهُ لي. فقالَ لي بلالٌ: إنِّي سَامحتُكَ غفَرَ اللهُ لَكَ. وقالَ ﷺ: "إخوانُكُمْ

خَوَلُكُمْ (عَبيدُكُمْ وخدمُكُمْ)، جَعلَهُمُ اللهُ تحتَ أيديكُمْ، فمَنْ كانَ أَخوهُ تحتَ يدِه فَليطعمْهُ ممَّا يأكلُ، وليلبسْهُ ممَّا يلبسُ، ولا تُكلِّفُوهُمْ مَا يَغلبُهُمْ،فَإنْ كلَّفتُموهُمْ فأعينُوهُمْ" [البخاري].

وَمرَّةً ثانيةً، بعثَ أميرُ الشَّامِ ثَوبينِ إلى أبي ذَرٍّ، فلبسَ أحدَهُمَا وأعطَى خَادمَهُ الثَّوبَ الثَّانِيَ، ثُمَّ خرجَ علَى القومِ، فقالُوا لَهُ: لَوْ كنتَ لبستَهُمَا جميعًا كانَ أجملَ. فقالَ: أجَلْ، ولكنِّي سَمعتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: "أَطعِمُوهُمْ مِمَّا تَأكلُونَ، وَألبسُوهمْ مِمَّا تكسُونَ"[ابن سعد].

وَعندمَا ذهبَ أبُو ذَرٍّ إلى الرَّبذةِ بالشَّامِ، وجدَ أميرُهَا غُلامًا أسودَ، عَيَّنَهُ أميرُ المؤمنينَ عُثمانُ ﷺ، فلمَّا أُقيمتِ الصَّلاةُ تَراجعُ الغُلامُ إلى الخلفِ وقالَ: تَقدَّمْ يَا أَبَا ذَرٍّ. فقالَ أبُو ذَرٍّ: بَلْ تَقدَّمْ أنتَ، فإنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ أمَرنِي أنْ أسمعَ وأُطيعَ، وَإنْ كانَ عبدًا أسودَ. فتقدَّمَ الغُلامُ، وصلَّى أبُو ذرٍّ خَلفَهُ.

❊ ❊ ❊

زُهدُ أبِي ذَرٍّ

كانَ أبُو ذرٍّ ﷺ زَاهِدًا في الدُّنيا، غيرَ مُتعلِّقٍ بهَا، لا يأخذُ منهَا إلا كمَا يأخذُ المسافرُ مِنَ الزَّادِ، قالَ النَّبيُّ ﷺ: "أبُو ذَرٍّ يَمشِي في الأَرضِ بِزُهدِ عيسَى بنِ مَريمَ عليه السلام" [الترمذي].

وكانَ أبُو ذَرٍّ ﷺ يقولُ: إنِّي لأقربُكُمْ مَجلسًا مِنَ النَّبيِّ ﷺ يومَ القِيامةِ، وَذَلِكَ أنِّي سَمعتُهُ ﷺ يقولُ: "أقربُكُمْ منِّي مَجلسًا يومَ القيامةِ مَنْ خرجَ منْ الدُّنيا كَهيئةِ مَا تركتُهُ فِيهَا" وَإِنَّهُ واللهِ مَا منكُمْ مِن أحدٍ إلاَّ وقدْ تشبَّثَ منهَا بِشيءٍ غَيرِي.[ابن سعد].

وَقِيلَ: لوْ جمعَ أبُو ذَرٍّ ﷺ مَا في بَيتِهِ مَا نَراهُ يُساوِي درهَمينِ.

وكانَ أبُو مروانَ ـ مِنَ التَّابعينَ- صَدِيقًا لأبي ذَرٍّ ﷺ، فَرآهُ يَومًا لابسًا نمرةً قَديمةً بَاليةً، يُصلِّي فيهَا، فقالَ لَهُ أبُو مروانَ: يَا أبا ذَرٍّ، أَمَا لَكَ ثَوبٌ غَيرُ هذِهِ النَّمرةِ؟ فقالَ أبُو ذرٍّ ﷺ: لوْ كانَ لي لَرأيتَهُ علَيَّ. فقالَ: فإنِّي رأيتُ عَليكَ

منذُ أيَّامٍ ثوبينِ. فقالَ: يَا بنَ أخِي، أعطيتُهُمَا مَن هُوَ أحوجُ إليهمَا منِّي. فقالَ: واللهِ إنَّكَ لمحتاجٌ إليهِمَا. فقالَ أبُو ذَرٍّ: اللَّهمَّ غُفرًا، إنَّكَ لَمُعظِّمٌ لِلدُّنيا، أليسَ تَرى علىَّ هذهِ البُردةَ، ولِي أُخرَى للمسجدِ، ولِي أعْنُزٌ نَحلبُهَا، ولِي أحمُرَةٌ (حِمَارةٌ) نحتملُ عَليهَا، وَعندَنَا مَن يخدمُنَا ويَكفِينَا مهنةَ طعامِنَا، فأيُّ نعمةٍ أفضلُ مِمَّا نحنُ فيهِ؟!

وذَاتَ يومٍ، بعثَ حَبيبُ بنُ مسلمةَ ـ أميرُ الشَّامِ ـ إلى أبي ذَرٍّ بثلاثِمئةِ دينارٍ مع أحدِ الخدمِ وقال لَهُ: قُلْ لَهُ: استَعنْ بهَا علَى حاجتِك. فقالَ أبُو ذَرٍّ للخادمِ: ارجعْ بِهَا إليهِ، أمَا وجدَ أحدًا أغَرَّ باللهِ منَّا، مَا لنَا إلا ظِلٌّ نتوارَى بِهِ، وثُلَّةٌ (قليلٌ) منْ غَنَمٍ تروحُ عَلينَا، ومَولاةٌ لنَا تَصدَّقَتْ عَلينَا بخدمتِهَا، ثُمَّ إنِّي لأتخوَّفُ الفَضلَ (أي: أخافُ أنْ يُحاسبَنَا اللهُ علَى الزِّيادةِ عَنْ حَاجتِنَا).

طَاعةُ أبي ذَرٍّ

كانَ أبُو ذَرٍّ ﷺ مِن أكثرِ النَّاسِ طَاعةً للهِ ورسُولِهِ، كمَا كانَ يَسمعُ ويُطيعُ لأُولي الأَمرِ كمَا أمرَهُ النَّبيُّ ﷺ،

وقدْ حاولَ بعضُ النَّاسِ أنْ يُخرِجُوهُ عن طَاعةِ السُّلطانِ، وَشجَّعُوهُ علَى مُحاربتِه، وَلكنَّهُ رفضَ ذلكَ، فذاتَ يومٍ كانَ بالرَّبذَةِ، فجاءَهُ قَومٌ من أَهلِ الكُوفَةِ مِنَ العراقِ، فقالُوا لَهُ: يَا أَبَا ذَرٍّ، فَعلَ بكَ هذَا الرَّجُلُ (يَقصِدُونَ أميرَ المؤمنينَ عُثمانَ بنَ عفَّانَ ﷺ) وفعلَ، فهلْ أنتَ ناصبٌ لنَا رايةً؟ فَلنُكمِلُ برجَالٍ ما شِئتَ.. فقالَ: "يَا أَهلَ الإسلامِ، لا تعرِضُوا علَيَّ ذَلكَ، ولا تُـذلُّوا السُّـلطانَ، فإنَّهُ مَن أذلَّ السُّلطانَ فلا تَوبةَ لَهُ، واللهِ لوْ أنَّ عُثمانَ صَلبَنِي علَى أطولِ خَشبَةٍ أو أطولِ جَبلٍ لَسمعتُ وأطعتُ، وصبرتُ، واحتَسبتُ، وَرأيتُ أنَّ ذاكَ خيرٌ لي، ولَو سيَّرَنِي ما بينَ المشرقِ وَالمغربِ، لَسمعتُ وأَطعتُ، وصَبرتُ واحتَسبتُ، ورأيتُ أنَّ ذاكَ خيرٌ لي، ولَو رَدَّنِي إلى مَنزِلِي لَسمعتُ وأطعتُ، وصَبرتُ، واحتَسبتُ، ورأيتُ أنَّ ذاكَ خيرٌ لي.

وذاتَ يومٍ، حدثَ بينَ أبي ذَرٍّ وَعُثمَانَ خِلافٌ، فَخَرجَ أَبُو ذَرٍّ مُتبسِّمًا، فقالَ لَهُ النَّاسُ: مَا لكَ ولأَميرِ المؤمِنينَ؟ فقالَ: سَامعٌ مُطيعٌ، ولَو أمرَنِي أَنْ أَذهبَ إِلى صَنعاءَ أو عدنَ ثُمَّ استطعتُ أنْ أفعلَ لَفعلتُ. فأمرَهُ عُثمانُ

ﷺ أنْ يخرجَ إلى الرَّبَذةِ بالشَّامِ، فَخرجَ أبُو ذَرٍّ ﷺ إليهَا، ومكثَ بهَا معَ زوجتِهِ وغُلامِهِ.

مَكانةُ أبي ذَرٍّ

تمتَّعَ أبُو ذَرٍّ ﷺ بمكانَةٍ عَاليةٍ عندَ النَّبيِّ ﷺ وعندَ الصَّحابةِ الكرامِ، وقدْ مدحَهُ النَّبيُّ ﷺ فقالَ: "مَا أظلَّتِ الخَضراءُ (السَّماءُ) ولا أقلَّتِ الغَبراءُ (الأرضُ) مِن ذِي لَهجةٍ أصدقَ ولا أوفى مِن أبي ذَرٍّ"[الترمذي]. وكانَ ﷺ يُسلِّمُ عَلَيهِ ويرفَعُ مكانتَهُ إذَا حضَرَ، ويسألُ عَنهُ إذَا غَابَ، ويَزُورُهُ كثيرًا.

وكانَ أبُو ذَرٍّ يُحبُّ اللهَ ورسُولَهُ ﷺ حُبًّا كبيرًا، فقدْ رُوِي أنَّهُ قَالَ لِلنبيِّ ﷺ: يَا رسُولَ اللهِ، الرَّجُلُ يُحبُّ القومَ ولا يَعملُ بِعَملِهِمْ. فَقَالَ ﷺ: "أنتَ مَع مَن أَحببتَ يَا أبَا ذَرٍّ" فَقَالَ: فَإنِّي أُحبُّ اللهَ ورسُولَهُ. فقالَ لَهُ ﷺ: "أنتَ مَعَ مَن أَحببتَ"[أحمد].

❊ ❊ ❊

وفاةُ أَبي ذَرٍّ

ظلَّ أَبُو ذرٍّ ﷺ مُقيمًا في الرَّبَذَةِ ومعَهُ زوجتُهُ وغُلامُهُ حتَّى مَرِضَ، وشَعرَ بدنوِّ أجلِه، فبكَتْ زَوجتُهُ، فقالَ لهَا: مَا يُبكِيكِ؟ قالَتْ: ومَا لِي لا أبكِي وأنتَ تَموتُ بِصحراءَ، وليسَ عندِي ثَوبٌ أكفِّنُكَ فِيه، ولا أستطيعُ وَحدِي القِيامَ بجهازِكَ ودَفنِكَ. فقالَ أَبُو ذَرٍّ: إذَا متُّ، فَاغسِلانِي وكفِّنَانِي وضعَانِي علَى الطَّرِيقِ، فأوَّلُ رَكبٍ يَمرُّونَ بِكمَا فقُولا: هذَا أَبُو ذَرٍّ.

فَلمَّا تُوفِّيَ فعلا مَا أمرَهُمَا بِه، فَمرَّ بِهِمَا عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ ﷺ معَ جَماعةٍ من أَهلِ الكُوفَةِ، فقالَ عبدُ اللهِ: مَا هذَا؟ فقِيلَ لَهُ: جَنازةُ أَبِي ذَرٍّ. فبكَى عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ ﷺ وقالَ: صَدقَ رسُولُ اللهِ ﷺ: "يَرحمُ اللهُ أَبَا ذَرٍّ، يمشِي وحدَهُ، ويموتُ وحدَهُ، ويُبعثُ وحدهُ"[ابن سعد].

ثُمَّ صلَّى عَليهِ عبدُ اللهِ، ودَفَنَهُ بِنفسِهِ، وكانَ ذَلِكَ سنةَ ٣٢هـ (٦٥٢م).

رَحِمَ اللهُ أَبَا ذَرٍّ ﷺ، وجزَاهُ عَنِ الإسلامِ وَالمسلِمينَ خَيرَ الجزَاءِ.